الطرق الصوفية

مدرسة حقيقية للتربية

للدكتور احمد فؤاد الأهوانى

الأستاذ بجامعة القاهرة

منذ أن ظهرت الصوفية كنظام، وهى تعتمد على تربية المسلمين تربية خاصة تلائم مذهب التصوف، حتى يمكن أن نقول إن التصوف معناه الفنى الدقيق، إنما هو نظام فى التربية، وهذا النظام يقوم على الصلة بين الشيخ ومريديه، وقد تختلف الأسماء، فنسمى قطبا وليا وغير ذلك، ويسمى المريد طالبا، أو مرتاضا، على أننا لم نجد منذ نشأ التصوف بمعناه المعروف، إلا جماعات، تجمعها الصلة بين المريدين والشيخ، يأخذون عليه العهد، ويبصرهم بالطريق إلى الله، حتى يمكن أن نجد بعض المذاهب الصوفية قامت دون أن يشترط فيها هذه الصلة الوثيقة بين الشيخ والمريدين، مثل صوفية ابن سينا فله مذهب فى آخر حياته بسطه فى كتابه — الاشارات — يتحدث فيه عن التصوف النظرى، وكيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى معرفة الله، بالذوق لا بالعقل، وبالمشاهدة والمعاينة، لا بالأدلة والبراهين، ولكننا لا نعد ابن سينا من جملة الصوفية.

بل الصوفية طريق عملى، ونظام فى الحياة، وهو إلى أن يكون جماعيا أدنى من أن يكون فرديا.

وعلى الجملة فالتصوف بمعناه الإصطلاحى الذى انتهى إليه ابتداء من القرن الخامس تقريبا، أصبح طريقة جماعية أو مدرسية، ومن هنا تعددت الطرق الصوفية المختلفة بحسب تعدد المشايخ والأقطاب.

ومن هذا الوجه، يعد التصوف

مدرسة حقيقية بمعنى الكلمة للتربية الإسلامية .

وقد تقنع بعض الطرق ، بتعليم القرآن والأحاديث والآداب الشرعية ووجوب التزامها ، والانقطاع للعبادة من صلاة وصوم ، كلها تؤدى إلى تصفية النفس وتهذيبها .

وقد تزيد هذه الشروط فى بعض الطرق فتصحبها الأذكار ، وقد تصحب الأذكار بالأناشيد ، وقد ترتل الأناشيد مع الموسيقى ، مما لا نريد أن نتعرض له بالتفصيل ، أى أن لكل طريقة ، أو لكل مدرسة مذهبها فى تربية المريدين ، وفى رياضتهم ، وفى تأديبهم حتى ينقطعوا إلى ذكر الله ، ويصلوا إلى معرفته بالأسلوب الصوفى ، وهو الشعور القلبى بوجود الله .

وقد أدت الطرق الصوفية رسالة عظيمة جداً خلال التاريخ فى نشر الإسلام ، وفى تربية المسلمين تربية تزيدهم قربا من الله .

وما دمنا قد اعتبرنا التصوف نظاما فى التربية ، فلا جرم أن تؤدى هذه التربية إلى إصلاح نفوس المريدين بوجه عام من الناحية النفسية والأخلاقية عن طريق تلك الصلة الوثيقة ، بين الشيخ والمريد .

لأن جوهر العلاج النفسى إنما يقوم على الصلة بين المريض والطبيب النفسانى ، صلة تؤدى إلى أن يكشف المريض نفسه بكل ما فيها للطبيب ، وهذا الانكشاف ، وهذا التحليل النفسى هو فى ذاته علاج للمريض ، لأن المرض النفسى نتيجة كبت المريض لأمور فى باطن نفسه ، لا يستطيع أن يظهرها سواء أكانت علتها مخاوف قديمة ، أو أسباب نفسية ، واتصال المريد بالشيخ ، بحيث يلقى إليه زمامه ويكشف له حالة يجعله يفضى إليه بكل ما يخطر بباله ، وما يكمن فى جوانح نفسه ، وعندئذ ، أى بعد أن يكشف نفسه يستقيم أمره ، من الناحية النفسية وكذلك سيستقيم أمره من الناحية الأخلاقية لأن علة العلل فى تدهور الأخلاق ، والسبب الرئيسى فى الرذائل هو الكذب والنفاق ، أى محاولة اخفاء النوايا ، والظهور بخلاف مايبطن المرء .

والصدق رأس جميع الفضائل الأخلاقية ، وأول باب من أبواب الصدق أن يصدق الأنسان مع نفسه ، ومعظم الرذائل ناشئة إما من الكذب

المتعمد ، وإما من الكذب غير المقصود بأن يتخيل المرء خلاف الحقائق .

فالذين يسيرون سيرة باطلة . إنما يجرون مع الأوهام ولو عادوا إلى الحقائق ، وواجهوا الدنيا بصراحة وبقوة ، ولم تفتنهم مظاهرها ، ومافيها من أموال وسلطان وزينة ، ما فكر أحد فى ارتكاب أى شر ، ولاقتراف أى رذيلة ،

ومادام الإنسان متصوفا بمعنى الكلمة ، زاهدا فى مباهج الدنيا الزائفة ، صابرا على حكم القضاء ، متحققا بالحقيقة ، لم تكن له حاجة بعد ذلك إلى سلوك طريق الرذيلة . وحسب التصوف هذا .

الدولة التى أنشأها شاعر صوفى

... إن الشاعر الصوفى العظيم « محمد إقبال » عندى أعظم من « نيتشه » لأنه طبق أحلامه على الواقع .

كان إقبال صوفيا ، ولكنه لم يعش فى صومعة ، كان يريد يقظة العالم الإسلامى فحقق أحلامه وخرجت دولة الباكستان إلى الوجود حلم هذا الشاعر العظيم :

عباس محمود العقاد